وسطيَّةُ الإسلام وثقافة التَّعايش

بحث:

وسطيَّةُ الإسلام وثقافة التَّعايش

ورقة بحثية مقدمة إلى:

(الوسطية والتسامح... نصوص ووقائع)

الذي أقامته:

رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

في مشعر منى يوم ١١ ذو الحجة ١٤٣٨هـ

إعداد: عبد الحق التركماني

نشر موقع الشيخ عبد الحق التركماني

www.turkmani.com

وسطيَّةُ الإسلام
وثقافة التَّعايش

ورقة بحثية مقدمة إلى:
(الوسطية والتسامح... نصوص ووقائع)
الذي أقامته: رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة
في مشعر منى يوم ١١ ذو الحجة ١٤٣٨هـ

إعداد:
عبد الحق التركماني
رئيس مركز دراسات تفسير الإسلام في بريطانيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الأمين، بعثه الله بالحقِّ والهدى رحمةً للعالمين، صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

مدخل:

أما بعد: فقد شرُفْتُ بدعوةٍ كريمةٍ من رابطة العالم الإسلاميِّ بمكَّة المكرمة للمشاركة في ملتقى حجِّ هذا العام (١٤٣٨)، الذي تقيمه الرابطة في مشعر منًى تحت عنوان: «**الوسطية والتسامح نصوص ووقائع**»، وهو اختيار موفَّق، يعالج قضية حيَّة من قضايا واقعنا المعاصر وتحدياته، فقد ضلَّ فئامٌ من المسلمين عن منهج الوسطية والاعتدال والتسامح فسقطوا في مهالك الغلو والتطرف والإرهاب وتأييد الثورات والانقلابات، واستغلَّ ذلك الحاقدون والمتربصون من أعداء الإسلام، فصار الإسلام والمسلمون في مرمى هاتين الطائفتين الضالتين: طائفة تسيء بانحرافها في التصور والتصرف، وطائفة تحمِّل الدينَ الحقَّ تبعات ما ترتكبه تلك الفئاتُ الضالةُ؛ وتستغلُّه في القيام بحملات التشويه والتحريض والإساءة لدين

الإسلام وشريعته، وأتباعه، والعاملين لخدمته والدعوة إليه.

من هنا؛ فلا شكَّ أن من أوجب الواجبات بذلَ الجهود لردِّ الأمور إلى نصابها الصحيح، وهذا الواجبُ متحقِّقٌ على أهل العلم والدِّين، وعلى أصحاب السلطة والقرار، وعلى المؤسسات والمنظمات الإسلامية، وتأتي في صدارتها: «**رابطة العالم الإسلامي**»، لكونها منظمةً إسلاميةً شعبيةً عالميةً، لها تأثيرها في مختلف المجالات العلمية والدعوية، كما أن لها حضورَها في المحافل الدولية ووسائل الإعلام، فأسأل الله تعالى أن يكون في هذا «**الملتقَى**» معالجة قوية نافعة في هذا المجال، ويجزي القائمين عليه خير الجزاء.

أما مشاركتي هذه فهي ورقة بحثية موجزة بعنوان: «**وسطية الإسلام وثقافة التعايش**»، وهي مساهمة متواضعة، لم أرَ التوسُّعَ فيها بالتفصيل والتفريع، والتقسيم والتوثيق المتَّبع في الدراسات الأكاديمية، بل حاولت التركيز فيها على فكرة محددة، أُقدِّرُ أنَّ إبرازها وتحرير البحث فيها سيساهم ـ إن شاء الله ـ في معالجة جانب من الإشكالات في واقعنا المعاصر، والله تعالى من وراء القصد.

في المصطلحات:

«**الوسطية**» مصدر صناعيٌّ من «**وَسَط**»، وهذه الكلمة وردتْ وصفًا لهذه الأمة في قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهذا هو الأصل

الشرعيُّ والتاريخيُّ للوسطية في المفهوم الإسلاميِّ، فهو من الألفاظ والأوصاف الأصيلة لا الدخيلة، وإن كان هذا المصدر الصناعيُّ لم يُستعمَل ويشتهر إلا في عصرنا الحاضر(١)؛ إلا أنَّ العلماء السابقين بيَّنوا معاني «الوسط» في وصف الأمة، وتلك المعاني ـ وما تعلق بها من نصوص ومفاهيم وقواعد وأصول ونتائج وآثار ـ هي مضمون «**الوسطية**» ومفهومها، وهي الكفيلة بضبط معناها ودلالتها في الاستعمال المعاصر(٢).

إنَّ مجموع كلام العلماء في تفسير «**الوَسَط**» في هذه الآية لا يخرج عن معنيين:

الأول: أن الوسط في كلام العرب هو العدلُ، الخيار من كلِّ شيءٍ، والخيار من الناس: عدولهم، وفي قصة أصحاب الجنة: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ

(١) أول من استعمل هذه الصيغة ـ فيما اطلعتُ عليه ـ هو العالم المصري الشيخ الفقيه محمد أبو زهرة (ت: ١٣٩٤) في تفسيره: «**زهرة التفاسير**»، دار الفكر العربي، القاهرة، ٨١/١.

(٢) ذلك لأن دلالة الاستعمال المعاصر أوسع بكثير من أصل اللفظ، فإن المصدر الصناعي يطلق على كل لفظ جامد أو مشتق، اسم أو غير اسم زِيدَ في آخره حرفان، هما: ياء مشددة، بعدها تاء تأنيث مربوطة، ليصير بعد زيادة الحرفين اسمًا دالًّا على معنًى مجردٍ لم يكن يدل عليه قبل الزيادة، وهذا المعنى المجرد الجديد هو مجموعة الصفات الخاصة بذلك اللفظ، مثل كلمة: «**إنسان**» فإنها اسم للمخلوق المعروف، فإذا صارت الكلمة: «**إنسانية**» تغيرت دلالتها تغيرًا كبيرًا، إذ يراد منها في وضعها الجديد معنًى مجرد، يشمل مجموعة الصفات المختلفة التي يختص بها الإنسان؛ كالشفقة، والحلم، والرحمة، والمعاونة، والعمل النافع، وغير ذلك، ولا يراد الاقتصار على معناها الأول وحده، ومثلها: الاشتراك والاشتراكية، الوطن والوطنية، التقدم والتقدمية، الحزب والحزبية، الوحش والوحشية. انظر: «**النحو الوافي**» للدكتور عباس حسن، دار المعارف، القاهرة: ١٩٦٦م، ١٨٦/٣.

﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [القلم]؛ أي: أعدلهم وأفضلهم.

الثاني: أن الوسط ما كان معتدلًا عن طرفي الإفراط والتفريط، واختار هذا الإمام ابن جرير الطبريُّ (ت: ٣١٠) رحمه الله، فقال: «وأنا أرى أن «**الوسَطَ**» في هذا الموضع هو الوسَطُ الذي بمعنى الجزءِ الذي هو بين الطرفين، مثل «**وسَطِ الدارِ**»، محرَّكةُ الوسطِ مثقَّلتُه، غير جائز في سينه التخفيفُ[١]. وأرى أنَّ الله تبارك وتعالى إنما وصَفهم بأنهم وسطٌ، لتوسُّطِهم في الدِّين، فلا هم أهلُ غلوٍّ فيه غلوَّ النصارى الذين غَلوا بالترهُّبِ، وقيلِهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهلُ تقصيرٍ فيه تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ اللهِ، وقتلوا أنبياءَهم، وكذَبوا على ربِّهم، وكفروا به، ولكنهم أهلُ توسُّطٍ واعتدالٍ فيه، فوصَفهم اللهُ بذلك، إذْ كان أحبَّ الأمورِ إلى اللهِ أوساطُها»[٢].

من الواضح أنْ لا تعارض بين هذين المعنيين، بل إن بينهما ـ في الحقيقة ـ تلازمًا وتداخلًا، فإنَّ: «الوسط حقيقةٌ في البُعد عن الطرفين، ولا شكَّ أن طرفي الإفراط والتفريط رديئان، فالمتوسط في الأخلاق يكون بعيدًا عن الطرفين؛ فكان معتدلًا فاضلًا. وكذلك سُمِّي العدلُ وسطًا لأنه لا يميل إلى أحد الخصمين، والعدل هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين... وأعدل بقاع الشيء وسطُه، لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء وعلى اعتدالٍ، والأطراف يتسارع إليها الخللُ والفسادُ، والأوسط محميةٌ محوطةٌ، فلما صحَّ ذلك في الوسط صار كأنه عبارة عن المعتدل الذي

(١) لأنه بتخفيف السين ظرفٌ.

(٢) «**تفسير الطبري**» دار عالم الكتب، ٦٢٦/٢.

لا يميل إلى جهةٍ دون جهةٍ»[١].

ومن هنا فإنَّ «**الوسط**» له مكانة مركزية ومحورية، معيارها: الخيرُ والعدلُ والحقُّ والحكمةُ والإنصافُ، والابتعادُ عنه سيؤدي ـ ولا بدَّ ـ إلى الإفراط والتفريط، فكلا الطرفين مذمومٌ، وكلما كان عن الوسط أبعدَ؛ كان أحقَّ بالذمِّ، ذلك لأن «**الوسط**» هو المعيار، فلا يأتي بمعنى التوسط بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشرِّ، والفضيلة والرذيلة، فقد عُلم بضرورة الشَّرع والعقل والفطرة استحالة الجمع بين هذه الأمور، أو الخلط بينها، أو اجتزاء شيءٍ من الحق أو الهدى أو الخير أو الفضيلة ثم ترك ما عداه من غير عذرٍ صحيح، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

نعم؛ ورد «**الوسط**» بمعنى التوسط بين طرفين في معانٍ محدَّدة، وبهذا فسَّر بعض العلماء قوله تعالى في كفارة اليمين: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]؛ أي: ليس بأفضله ولا بأخسِّه[٢].

قال القرطبيُّ: «قد تقدَّم في [تفسير آية سورة] البقرة أنَّ الوسطَ بمعنى: الأعلى والخِيَارِ، وهو هنا: منزلةٌ بين منزلتين، ونِصْفٌ بين طَرَفين»[٣].

وذهب الأكثرون إلى المعنى الأصلي فقالوا: أي من أعدل ما تطعمون

---

(١) «**تفسير الرازي**» ١٠٧/٤. ط. دار إحياء التراث.

(٢) «**زاد المسير**» ٤٠٤. ط. المكتب الإسلامي، ودار ابن حزم.

(٧) «**الجامع لأحكام القرآن**» ١٤١/٨. ط. مؤسسة الرسالة.

أهليكم[١]. ومهما يكن؛ فإن التوسط في الإطعام بين الجيد والرديء معروف في هذا المقام، كما يعرف العقلاء فضيلة التوسط بين الإسراف والبخل، والمزاح والانقباض، والضحك والتجهُّم، والفرح والأسَى. والمتأمل في هذه الأحوال يجد أن التوسط فيها متضمِّنٌ لمعنى الخير والعدل والحكمة، فرجع الأمر إلى أنَّ المعيار في «**الوسطية**» نفسِها، سواء عُرفت بذاتها وصفاتها وخصائصها، أو باعتدالها عن طرفي الإفراط والتفريط.

أما «**الثقافة**» فالمراد منها ـ في هذا السياق ـ الدلالةُ على مجموع المواقف والأعراف والتقاليد والمعتقدات والمفاهيم والقدرات والأفعال والصيغ الاجتماعية التي تمارسها الجماعات الإنسانية، وتشمل القيم التي تتناقلها الأجيال بواسطة التربية والاتصال الاجتماعي[٢]. ولا شكَّ أن دين الإسلام هو المكوِّنُ الأساسيُّ، والمؤسسُ الأقوى لثقافة المسلم، ذلك لما فيه من الشمولية لجوانب الاعتقاد والعبادات والأخلاق والسلوك وكثيرٍ من تفاصيل الحياة اليومية.

أما «**التعايش**» فهو من «**العيش**»، و«**المعيشة**»: ما تكون به الحياة[٣].

وقال العلامة اللغويُّ أبو إبراهيم الفارابي (ت: ٣٥٠): «التَّعايُش: أَنْ

---

(٨) انظر: «**تفسير الطبري**» ٦٤٢/٨، «**زاد المسير**» ٤٠٤، «**تفسير البغوي**» ٧٠٧/١. ط. دار طيبة، «**الجامع لأحكام القرآن**» ١٤١/٨، تفسير القرآن العظيم ٤٥٥/٣ ط. ابن دار ابن الجوزي.

(٢) انظر: «**الموسوعة العربية**» ٣٠٧/٧، مادة: (**الثقافة**). ومبحث (**الثقافة**) في كتابي: «**مقدمة في تفسير الإسلام**».

(٣) «**تاج العروس**» طبعة الكويت ٢٨٣/١٧.

يعيشَ بعضُهم مع بعضٍ»[١]، وهذا «تفاعل» يقتضي التقابل في حسن المعاملة وحفظ أسباب المعيشة الحسنة، لهذا قالوا: «**تعايشوا بألفةٍ ومودَّةٍ**»[٢].

مرجعية الوسطية عند المسلم:

لكل قوم مرجعيتهم التي يبنون على أساسها فهمهم لمنهج «**الوسطية**»، فقد يُحكِّمون عقولَهم وفطرهم، أو مقولات فلاسفتهم ومفكريهم، أو يسيرون على ما تواضعوا عليه في مجتمعهم، أما المسلم فمرجعيته في منهجه الوسطي هي العقيدة الربانية، والشريعة الإسلامية السمحة، فالوسطية من اختيار الله تعالى لهذه الأمة تشريفًا وتكليفًا، والرسول ﷺ هو المبلِّغُ والمعلِّمُ، خاصة عندما يتعلق الأمر بالجانب العملي من «**الوسطية**» ـ كما هو موضوع بحثنا ـ، فهو ﷺ الأسوة والقدوة في التعايش والتعامل والممارسة والسلوك، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ

(١) «**معجم ديوان الأدب**» للفارابي، تحقيق: د. أحمد مختار عمر، مؤسسة دار الشعب، القاهرة: ١٤٢٤، ٤٦١/٣.

(٢) «**أساس البلاغة**» للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٩، ٦٨٩/١.

إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ [النور]، وقال ﷺ: «**فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١)؛ فالواجب على كلِّ مسلمٍ رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا؛ أن يعتقد اعتقادًا جازمًا بأنَّ النموذجَ الصحيحَ الحقَّ لمنهج «**الوسطية**» إنما هو في اتباع الكتاب والسنة، واقتفاء هدي النبي الكريم ﷺ في القيام بحق الله تعالى، وحقِّ النفس، وحقوق الناس، والتعايش والتعامل معهم في جميع الأحوال والأمصار والأعصار.

فهذا معيار الحقِّ والخير والفضيلة والإحسان، كما قال الإمام أبو محمد ابن حزم (ت: ٤٥٦) رحمه الله: «من أراد خيرَ الآخرةِ، وحِكْمةَ الدنيا، وعَدْل السِّيرةِ، والاحتواءَ على محاسنِ الأخلاق كلِّها، واستحقاقَ الفضائلِ بأَسْرها؛ فَلْيَقْتَدِ بمُحمَّدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولْيَسْتعمل أخلاقه، وسِيَرَهُ ـ ما أمْكَنَهُ ـ، أعاننا الله على الاتِّسَاءِ به، بمَنِّه، آمين»(٢).

إشكالية الاعتقاد والسلوك:

كانت تلك مقدمات ضرورية قبل أن ألجَ في صُلب الموضوع؛ فأقول: إن أخطر المشكلات، وأعقد المعضلات، وأكبر التحديات في الطريق إلى «التعايش» إنما هو في التوفيق والمواءمة والموازنة بين ما يعتقده الإنسان ويؤمن به، وبين ما يجب عليه ـ أو يجوز، أو يحسن ـ أن يفعله وينفِّذَه. وإن

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما.

(٢) «**الأخلاق والسير**» بتحقيقنا، الفقرة (٣٩).

شئتَ فقل: بين العلم والعمل، أو العقيدة والشريعة، أو الفكر والموقف، أو التصور والتصرف.

في واقعنا المعاصر تياران منحرفان، يمثلان طرفي النقيض في منهج «**التعايش**»:

الأول: يجعل «**الاعتقاد**» معيارًا مطلقًا، وميزانًا كليًّا، وموقفًا قطعيًّا جامدًا، يبني على أساسه كل تصرفاته وأعماله وسلوكياته في منهج التعايش مع الناس، كلِّ الناس: مسلمين كانوا أم غير مسلمين، مسالمين كانوا أم حربيين، فلا يقيم اعتبارًا للتعايش، ولا تهمُّه مصالح الناس وحفظ ضروريات حياتهم، ورعاية حاجاتهم، ومتطلبات معايشهم.

إنَّ جماعات التطرف والعنف والإرهاب محكومةٌ بهذا الفهم، وتمثل «**داعش**» و«**القاعدة**» و«**بوكو حرام**» ـ وغيرها ـ شرَّ تطبيق عمليٍّ لهذا الاتجاه.

الثاني: يجعل مقصد «**التعايش**» هو الغاية الحاكمة، والمصلحة الغالبة على ما سواها؛ حتى على المعتقد والدين والشريعة، فيتوهَّم أن تحقيق هذا المقصد الشريف، وبلوغ هذه الغاية النبيلة بين بني آدم، إنما يكون بطرح الاعتقاد جانبًا، والإعراض عن الدين وأحكامه، حتى يكون اجتماع الناس على المصالح الدنيوية، والمنافع المعنوية والمادية، والمكاسب الآنية العاجلة، وإن كان في ذلك فوات مصلحتهم الكبرى وهي الاستقامة على شرع الله تعالى، ونيل رضاه سبحانه، والفوز والنجاة في الدار الآخرة.

حملةُ هذا الفكر ودعاته من تبَّنى أو تأثَّر بمنهج العلمانية أو اللِّيبرالية

أو التغريب، فهو أصل فكرهم، وبواعثُ رؤيتهم لحقائق الدين والحياة، وإن كانوا على درجاتٍ متفاوتةٍ، ومراتب متباعدة في الانحراف والبعد عن الحق والهدى، حتى صار في الإسلاميين الحركيين من يتبنى ويناصر هذا الاتجاه بسبب اعتقادهم أو تأثرهم بالتفسير السياسي والنفعي والمصلحي للإسلام.

إن اتخاذ المنهج الوسط بين هذين المنهجين المتطرِّفين؛ لهو الامتحانُ العسير، والابتلاءُ الشديد، الذي يفشل فيه، ويسقط في مهاويه أكثرُ الناس، والسعيد من وُفِّق إلى حسن التوفيق والموازنة بين الجانبين، فيحافظ على العقيدة، ويعظِّم دين الله عزَّ وجلَّ، ويقيم أحكام الشريعة، ويتعايش ـ في الوقت نفسه ـ مع الموافقين والمخالفين على أساس الحق والرحمة، والعدل والإحسان، والرفق والتسامح وسعة الأفق.

إنَّ الجمع بين هذين الأمرين هو الذي يأمر به القرآن الكريم ويرشد إليه، وهو الذي يتمثَّل في سيرة النبيِّ ﷺ وسنته وآدابه وأخلاقه، وعنه حملَه أصحابُه الكرام رضي الله عنهم، فدَعَوا الأمم، وفتحوا البلاد، وهكذا تحوَّل «**التعايش**» إلى «**ثقافةٍ**» عامَّة للأمة المسلمة، والمجتمع المسلم.

القرآن الكريم دستور منهج الوسطية في التعايش:

كلُّ من نظر في كتاب الله تعالى يعلم أن جانب الاعتقاد والحكم والتشريع فيه مبناه على الجزم والقطع، فلا مجال فيه للتردد والمساومة، أو الضعف والتسامح، أما جانب التعامل فمبناه على التسامح والرفق والإحسان. يظهر هذا جليًّا في كثير من الآيات التي أمرت النبيَّ ـ في أولها ـ

بالجهر بالدعوة، وإقامة الحجة على المخالفين، وأمرته ـ في آخرها ـ بالصبر والعفو والحلم والإعراض، قال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر]، وقال سبحانه: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف]، وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة]، وخلافًا لما ظنَّه بعضُ العلماء ـ أو كثيرٌ منهم ـ من أن هذه الآيات منسوخة بآيات الأمر بالقتال والحرب، فقد ذهب المحقِّقُون منهم ـ مثل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] ـ إلى أنها محكمةٌ.

ولا شكَّ أن هذا القول هو الصحيح الذي يجب القول به، لأن الصبر والعفو والصفح وحسن المعاملة من الأخلاق والفضائل، والأخلاقُ والفضائلُ لا يدخل عليها النَّسْخُ أبدًا، إنما يقع النَّسخُ في الأحكام، فكان

١) انظر: «**الصارم المسلول**» تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الحرس الوطني السعودي، الرياض: ١٩٨٣، ٢٢١.

القتال منهيًّا عنه في حال الاستضعاف، فلما صارت للمؤمنين دولة وقوة وقدرة؛ أَذِنَ الله تعالى لهم بالقتال ونسخ النهيَ عنه، لا عن تلك الأخلاق الكريمة في معاملة مخالفيهم، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة].

كما أمر النبي ﷺ بالاستجابة للمشركين إن اختاروا طريق السلم والمصالحة، فقال تعالى: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء]، ذلك لأن «**الحرب**» مذمومةٌ، ولا يحرِصُ عليها إلا المفسدون: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة]. وأسَّس لمنهج الدعوة في مثل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ

لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت].

وبالجملة؛ فإن القرآن الكريم جعل أساس العلاقة بين بني آدم هو «التعارف»، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

والتعارفُ مبدأُ التعايش والتعاون والتقارب، كما قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسير الآية: «فإنَّه لو استقلَّ كلُّ واحد منهم بنفسه؛ لم يحصُلْ بذلك التعارف الذي يترتَّب عليه التَّناصر والتَّعاون والتَّوارث والقيام بحقوق الأقارب، ولكنَّ الله جعلهم شعوبًا وقبائل؛ لأجل أن تحصُلَ هذه الأمور وغيرها ممَّا يتوقَّف على التعارف ولحوق الأنساب، ولكن الكرمَ بالتَّقوى، فأكرمُهم عند الله أتقاهم»[١].

الوسطية والتعايش في مفصَّل السيرة والسنة النبوية والآثار السلفية والتاريخ الإسلامي:

إنَّ من أهم وسائل مكافحة طرفي الإفراط والتفريط ـ المذكورين أعلاه ـ المحاججة بمفصَّل السيرة والسيرة النبوية والآثار السلفية، وحقائق التاريخ وشواهده في تعايش المسلمين مع غيرهم، وعدم الاكتفاء بالتقريرات المجملة، والاستشهادات العامة، ففي السيرة والسنة والتاريخ نصوص ووقائع كثيرة جدًّا يمكن توظيفها لترسيخ المنهج الوسطي؛ من غير تنازل عن الديانة، ولا إخلال بمصالح البشر في معايشهم.

١) «تيسير الكريم الرحمن» دار ابن الجوزي، ٩٥٤.

أول ذلك: النظرُ في سيرة النبي ﷺ في العهد المكيّ، فقد ظلَّ ﷺ ثابتًا في دعوته، مجاهرًا باعتقاده، صريحًا في إبطال شرك قومه، وبيان ضلالهم، ولقي في ذلك أذى كثيرًا، لكنَّه ظلَّ قائمًا بأمر الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر]، ورغم ذلك فالناظر في تفصيل السيرة ووقائعها سيجد أنه ظلَّ على «**صلةٍ**» ببني قومه، تلك الصلة يُعبر عنها بلغتنا المعاصرة «**التعايش**»، وأساسها العدلُ والصدقُ والوفاءُ والإحسانُ، فعلى الرغم من الأذى النفسي والمعنوي الذي لقيه ﷺ من قومه على مدى ثلاث عشرة سنةً؛ فلم يُذكر عنه ـ قطُّ ـ موقفٌ أو تصرفٌ قادح في هذه المعاني النبيلة، بل بقيت تلك المكانة الاجتماعية والأخلاقية والاعتبارية الرفيعة للصادق الأمين ﷺ على حالها، ولا أدلَّ على ذلك من وضعهم أماناتهم عنده، فلما أراد الهجرة أمر عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه أن يتخلَّف بعده في مكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، «وكان رسول الله ﷺ ليس بمكَّة أحدٌ عنده شيءٌ يخشى عليه إلا وضعه عنده؛ لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ»[1]. وهذا «**التعايش**» كان امتدادًا لما عُرف من رسول الله ﷺ من مخالطة قومه وانسجامه معهم قبل البعثة النبوية، فلم يكن النبيُّ ﷺ يتميَّز عنهم إلا بما خصَّه الله تعالى به من الصيانة والحفظ من موبقات الجاهلية ومفاسدها ومعايبها.

فإذا انتقلنا إلى العهد المدنيّ؛ سنجد الدلائل والشواهد والنماذج

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام، طبعة السقا: ٤٨٥/١.

الرائعة للتعايش بين المسلمين وغيرهم في غاية الجلاء والكثرة، بدءً بـ: «**وثيقة المدينة**» التي نظمت العلاقة بين أهل المدينة أنفسهم، وبينهم وبين غيرهم، وهي كما سمَّاها الدكتور محمد حميد الله الهندي: «**أقدم دستور مسجَّل في التاريخ**»(١)، وانتهاء بوفاة رسول الله ﷺ ودرعه مرهونةٌ عند يهوديٍّ بثلاثين صاعًا من شعير(٢).

وخلال تلك المدة التي امتدَّت عشر سنين؛ شهدت المدينةُ النموذجَ الأمثلَ في «**التعايش**» الجامع بين الحقِّ والرحمة، فقد كان القرآن الكريم ينزل بالحق والهدى، ويفنِّدُ انحرافات المخالفين من اليهود والنصارى وغيرهم، ويفضح تاريخ استكبار اليهود ومعاندتهم وقتلهم للأنبياء، والعقوبات الإلهية التي نزلت بهم، والنبيُّ ﷺ يقرأ تلك الآيات في صلاة الجمعة والجماعة، فيسمعها الصحابة الذين يمثلون الدرجة العُليا من العلم والفهم والإيمان؛ فلم يحدث ـ قطُّ ـ أن خرج أحدٌ منهم من المسجد، وهو بتلك الحالة العالية من الانفعال والحماسة والغيرة؛ فبادر إلى الاعتداء على من يلقاه في الطريق من اليهود أو النصارى أو المشركين.

ويخبرنا حديثٌ صحيحٌ: أنَّ غلامًا يهوديًّا كان يخدم النبيَّ ﷺ «وفي روايةٍ: أنه كان يضع للنبيِّ وضوءَه، ويناوله نعليه»؛ فمرض، فأتاه النبيُّ يعوده

---

(١) هكذا عنون لبحثه في مباحث مؤتمر دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن: ١٩٣٨م، وذكر الوثيقة بمصادرها في كتابه النفيس: «**مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**»، دار النفائس، بيروت: ١٤٠٧، ٥٧-٦٥.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

فقعد عند رأسه، فقال له: «**أسلم**»، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم! فأسلمَ، فخرج النبيُّ ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»(١).

لقد وقفنا كثيرًا عند هذا الحديث لنستخرج منه بعض أحكام عيادة غير المسلمين، وحكم الإسلام في مرض الموت، ونحو ذلك من المسائل ـ ولا شكَّ أنها مهمة، وحِريَّة بالاهتمام ـ، لكن لم نقف طويلًا عند معانٍ عظيمةٍ تدلُّ عليها هذه القصَّة:

منها: «**التعايش**» والتسامح في المجتمع المدني، فلم يكن في مخالطة غلام يهودي ـ وهو شابٌّ كبير، بالغٌ سنَّ التكليف بدلالة الحديث ـ للنبيِّ ﷺ في حضرة خيار الصحابة؛ أي حرجٍ، فلم يبادر أحد منهم إلى منعه والاستغناء عنه، أو التعرض له بالمضايقة والأذى.

ومنها: سؤال النبي ﷺ عن الغلام، واهتمامه به، وخروجه لعيادته. يتمُّ الحديث ـ هاهنا ـ عن تواضعه ﷺ وحرصه على هداية الناس وفرحه بنجاتهم الأخرويِّ. وهذا حقٌّ، لا شكَّ فيه، لكن ينبغي الحديث ـ أيضًا ـ عن تلك العلاقة الطيبة والصلة القوية بين خاتم الأنبياء والمرسلين وغلام يهوديٍّ، من عامة يهود المدينة.

ومنها: أن جمال ذلك «**التعايش**» قد ترك أثره الطيب المبارك في نفس ذلك الشاب بحيث استقبل النبي خير استقبال، واستجاب لدعوته، وأمرَه

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٦) من أنس بن مالك رضي الله عنه. ولفظ الرواية الأخرى عند أحمد (١٢٣٨١).

والدُه بطاعته. كلُّ هذا يدلُّ على المودة والإحسان والاحترام الذي غرسه النبيُّ الكريم في أعماق نفوسهم، ولا يكون ذلك إلا بالأخلاق الكريمة، والتعامل الحسن.

أما التاريخ الإسلامي؛ فتلخص صفحته البيضاء كلمة المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون (ت: ١٩٣١م): «**لم يعرف التاريخ فاتحًا أرحم من العرب**». وتتبع المستشرق البريطاني توماس آرنولد (ت: ١٩٣٠م) في كتابه: «**الدعوة إلى الإسلام**» وقائع الفتوحات الإسلامية وشواهدها الكثيرة في مباحث تفصيلية عن عدل المسلمين وإنصافهم وحسن معاملتهم للسكان الأصليين، خلافًا لما حصل في أميركا وأستراليا وإفريقيا وغيرها. ولم يعرف التاريخ الإسلامي «**محاكم التفتيش**»، ولا حملات الإبادة الجماعية، ولا التمييز العنصري، بل كان العالم الإسلامي خير ملاذٍ للمستضعفين والمضطهدين في مختلف البلاد والعصور، وما زال مؤرخو اليهود يحفظون فضل المسلمين عليهم عندما لجؤوا إلى بلاد المسلمين فرارًا من الاضطهاد والإبادة في إسبانيا وغيرها.

ولنختم بهذه الآية الجامعة للمعاني التي أردنا الإشارة إليها: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القصص].

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس الموضوعات

مدخل: ٥
في المصطلحات: ٦
مرجعية الوسطية عند المسلم: ١١
إشكالية الاعتقاد والسلوك: ١٢
القرآن الكريم دستور منهج الوسطية في التعايش: ١٤
الوسطية والتعايش في مفصَّل السيرة والسنة النبوية والآثار السلفية والتاريخ الإسلامي: ١٧
فهرس الموضوعات ٢٣